التّحليل النّقدي الجديد للاستعارة

أ. سعيد بكار□

المغرب

Abstract

This paper presents a clarification for and a discussion of "criticism's" concept in one of the trends of discourse analysis, namely Critical Discourse Analysis. In doing so, an illustration of the dimensions and meanings of this concept is provided both in theory and practice. Here the researcher investigates conceptual metaphor in the media discourse that is against immigration. The aim is to make widespread influences of conceptual metaphor in media discourse clear; which would indicate the powerfulness of critical analysis in fighting these kinds of influences unveiling their negative manifestations and suggesting other positive alternatives for them.

مقدّمة:

يؤدي الخطاب دورا جوهريا في الحياة الاجتماعية، فهو مرتبط بمفاصل هذه الحياة. وبعبارة مختصرة: "لا وجود لواقع اجتماعي دون خطاب؛ ودون فهم للخطاب، لا يمكننا أن نفهم واقعنا، أو تجاربنا أو أنفسنا" (Nelson and Cynthia, 2002, p: 2). ومن منطلق الوعي بأهمية الخطاب وخطورته، قام باحثون في تخصصات عديدة بدراسة الخطاب في مختلف مناحي الحياة، كان من نتائجها نشأة تخصص جديد هو ما بات يُعرف بـ"تحليل الخطاب"(بر). وقد عرف هذا التخصص منعطفات عدة: نقدية وتداولية، وعرفانية. فاكتفى المنعطف العرفاني بوصف هذا الخطاب في مراحل إنتاجه،

واتجه المنعطف التداولي نحو دراسة آثاره في متلقيه، وعلاقته بمستعمليه، واستفاد المنعطف النقدي من الاتجاهين الأوليين فأضاف إلى الوصف والتفسير بعدا نقديا، مفاده دراسة ما تؤدي إليه الخطابات من سوء استعمال للسلطة، والهيمنة، واللامساواة، وغير ذلك من الممارسات الاجتماعية السلبية. ويحاول هذا المقال أن يلقي بعض الضوء على هذا الاتجاه الأخير، من ناحية وحيدة، هي مفهوم النقد فيه، مقدما مثالا تطبيقيا له.

1 -الخطاب موضوعا للنقد:

يحظى الخطاب بأهمية كبرى في الحياة الاجتماعية، فبه يتواصل الناس ويؤدون أغلب أغراضهم. لذلك ارتبط الخطاب بالسلطة[تر]؛ فهو أداتها ووسيلة الحفاظ عليها ودعمها أو حتى الثورة عليها وتغييرها. لذلك وجدنا الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو يقول: "الخطاب ينقل السلطة وينتجها يقويها، لكنه أيضا يلغمها، يفجرها يجعلها هزيلة، ويسمح بإلغائها" (ميشيل فوكو، 1976، ترجمة مطاع صفدي وجورج أبو صالح، 1990، ص: 108 -109).

وانطلاقا من هذه العلاقة الجدلية بين الخطاب والسلطة، اهتم محللو الخطاب بالنظر إلى الخطاب بوصفه شيئا ينتج شيئا آخر (ملفوظ، مفهوم أثر)، أكثر منه شيئا يوجد لذاته وفي ذاته، ويمكن تحليله بمعزل عن الأشياء الأخرى (Sara Mills, 1997, p: 17). لذلك لا نستغرب أن يقول عنه محللا الخطاب بلومارت وبولكان: "الخطاب موضوع سلطة غامض في المجتمعات المعاصرة، ويهدف التحليل النقدي للخطاب إلى جعله مرئيا وشفافا (Blommaert and Bulcaen, 2000, p: 448). ولن يتأتى ذلك إلا بإخضاع هذا الخطاب إلى التحليل النقدي الذي يتغيا إماطة اللثام عن الإيديولوجيات والانحيازات الضمنية فيه، ومن ثم ممارسة السلطة. إنه محاولة جادة لتحليل

العلاقة بين اللغة والإيديولوجية والمجتمع تحليلا نقديا (Widdowson, 2000). فما المقصود بكلمة النقد، الذي نتحدث عنها هنا؟

2 -مفهوم النقد:

تحمل كلمة "نقدي" معجميا دلالات سلبية، فهي تحيل على شيء سيئ أو خاطئ (معجم كامبردج، ولسان العرب[ير])، لذلك وجدنا روث وداك (2007) تحاول أن تمحو هذه الصبغة من اتجاه التحليل النقدي للخطاب، قائلة إن هذا المعنى السلبي غير وارد في هذا الاتجاه.

وتخلصُ ووداك إلى أن مصطلح "نقدي" لديه ثلاثة معان في التحليل النقدي للخطاب؛ أولا، ألا تأخذ الأشياء مسلمات. ثانيا، أن تجعل البنيات الغامضة للسلطة ظاهرة. ثالثا، أن تقترح بديلا للممارسات السلبية[سم]. (Ruth Wodak, 2007). وسنتوقف بكل معنى على حدة.

2 -1 - النقد بوصفه كشفا للبنيات الغامضة للسلطة:

قلنا سابقا إن الخطاب مرتبط بالسلطة ارتباطا جدليا حيث يعكس السلطة ويشرعنها ويحافظ عليها، وقد يقاومها ويفككها، وقلنا أيضا إن هذه العلاقة تكون غالبا ملتبسة وغامضة؛ فلا تتبدى إلا بالتحليل النقدي الذي يكشفها ويعريها ويبرزها للعيان. لذلك يسعى مفهوم النقد في هذا الاتجاه التحليلي للخطاب إلى إنتاج معرفة نقدية تُمكِّن الناس من تحرير أنفسهم من أشكال الهيمنة[□]. ومن ثمة، فإنه يهدف إلى إنتاج التنوير والتحرير (Wodak ana Meyer, 2009, p: 7). فقد تبدو لنا بنيات خطابية عادية[لم]، وهي تعكس سوء ممارسة السلطة، وتعزز إيديولوجيات سلبية، من قبيل الاستعارة التي سنشتغل بها في المحور التطبيقي.

2 -2 - النقد بوصفه عدم أخذ الأشياء بوصفها مسلمات: يرتبط هذا الفهم لمصطلح "نقدي"، بالفهم الأول، فالوعي ببنيات الخطاب الحاملة للسلطة

والمكرسة لها، التي عادة ما تكون غامضة، يأتي نتيجة اعتماد المحلل الشك في كل الكلمات والبنيات التركيبية والبلاغية والأسلوبية التي يستعملها منتجو الخطابات، فكل مفردة أو بنية ينبغي ألا تعتبر مسلمة أو طبيعية في اللغة. فقواعد اللغة اختيارات ونظرة للواقع، وليست مجرد قواعد محايدة؛ لذلك تتمثل وظيفة النقد في إبراز الدور الذي يؤديه الخطاب في انبثاق السلطة، وتشريع عدم المساواة الاجتماعية. حتى لا تصبح الإيديولوجيات المهيمنة للسلطة، ومن خلال الاستعمال المفرط لها، طبيعية ومحايدة، ومن ثم تؤخذ كمسلمات. وهذا ما سماه دين (1994) بأشكلة الممارسة؛ مقترحا ممارسة نقدية تقاوم قبول العناصر المسلم بها في واقعنا، والأسباب الرسمية التي جعلتها على النحو الذي هي عليه (Dean, 1994, p: 4 in Pennycook, 2001, p: 7).

2 -3 - النقد بوصفه اقتراح بدائل للممارسات السلبية: يعدّ هذا الفهم لمصطلح "نقدي"، من المبادئ الأساسية للتحليل النقدي للخطاب؛ فمواجهة الممارسات الاجتماعية والسياسية التي يكون وسيطها الخطاب، يجب ألا تتوقف عند النجاح الأكاديمي، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى القيام بمقترحات تسعى للتنفيذ التطبيقي؛ أي الفهم الأفضل للمشاكل الاجتماعية الملحة، وربما تغييرها (Wodak, 1995). لذلك نجد فان ديك يقول: "يحاول التحليل النقدي للخطاب أن يصوغ منظورا عاما للتضامن مع المجموعات المهيمن عليها ويدعمه؛ وذلك عبر صياغة مقترحات استراتيجية لسن سلطة وإيديولوجيات مضادة وتطويرهما في ممارسة التحدي والمقاومة" (Van Dijk, 1995, p: 18). وأن "التحليل النقدي الناجح هو الذي يكون ناجعا بنتائجه وتوصياته وتدخلاته النفعية، التي ينبغي أن يكون لها أثر" (Ibid, p: 19). وقد قام المحللون النقديون للخطاب بتقديم توصيات عديدة، من قبيل: توصية فيركلاف بتدريس الوعي النقدي باللغة لطلبة المدارس (Fairclough, 1992a)، وتقديم روث ووداك إرشادات للأطباء والأساتذة

والمحامين بخصوص الوعي النقدي باستعمال اللغة مع مرضاهم أو تلاميذهم أو موكليهم (Wodak, 2007)، وفضح فان ديك ممارسة النخبة الأوربية للعنصرية، رغم ادعائها عكس ذلك(□).

ويربطنا هذا الفهم لمصطلح "نقدي" بوصفه اقتراحا لبدائل بنقطة محورية في التحليل النقدي وتحليل الخطاب، هي وظائف تحليل الخطاب.

3 -وظائف تحليل الخطاب:

ما الوظائف التي يسعى تحليل الخطاب إلى إنجازها؟ وما الذي يشرعن ممارسة تحليل الخطاب بوصفه تخصصا جديدا في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية؟ بعبارة أخرى، ما الوظيفة الاجتماعية والسياسية والعلمية لتحليل الخطاب؟(□)

في محاولة للإجابة عن هذا السؤال يتحدث فان ديك (1985) عن وجود فريقين تصديا لهذا السؤال؛ فريق أول ذهب إلى أن اختيار أهداف بحثنا ومناهج استكشافنا ونظرياتنا وموضوعات تحليلنا، لا ينبغي أن يكون مستقلا عن مواقفنا ومصالحنا الاجتماعية والسياسية الخاصة بنا. هذا المذهب دعمته نماذج عديدة من العلوم الاجتماعية، لعل أبرزها هو التطور المنتشر والسريع للبحث النسوي في تخصصات عديدة، أضف إلى ذلك الدراسات الإثنية، وهكذا أصبحت الشوفينية الذكورية والمركزية الإثنية والعنصرية، والهيمنة الغربية أنواعا مألوفة للنقد، سواء في المجتمع أو في الميادين الأكاديمية. وفريق ثان، ساند حجج الفريق الأول وانتقاداته، لكنه رفض بحزم أن نخلط العلم بـ"السياسة"، فالدرس الأكاديمي ينبغي أن يظل مستقلا، ولا يخضع لإكراهات التطورات أو القرارات أو السياسات السياسية والاجتماعية الداخلية. (Van Dijk, 1985, p: 2). وضع فان ديك نفسه ضمن الفريق الأول، وسينتقد بعد مرور عشر سنوات نظرة الفريق الثاني، بعبارة ساخرة جاء فيها: "وليس من

المفاجئ أن تعتبر هذه النظرة [نظرة الفريق الأول] منحازة ("سياسيا")، ومن ثم غير علمية ("ذاتية") في نظر دارسين يظنون أن عملهم غير النقدي "الموضوعي" لا يتضمن رأيا، ومن ثم موقفا اجتماعيا وسياسيا، وبصفة خاصة موقفا محافظا يعمل على تدعيم الموقف الراهن" (Ibid, p: 19).

إذا، بدل الوقوف في جانب ذوي السلطة يدعو فان ديك إلى الوقوف بجانب المظلومين والمهمشين والمهيمن عليهم. وهنا سيطرح سؤال هام: ما المعايير التي ينبغي الاستناد إليها لتمييز ما هو إيجابي وما هو سلبي، ما يستحق النقد وما لا يستحقه؟ ما هو سيئ وما هو جيد. وسيجيبنا فان ديك عن هذا السؤال، عبر تحليل عميق لمفهوم الإيديولوجيا(لح□)، وبالضبط بحديثه عن مفهوم الأرضية المشتركة common ground، الذي يعد معرفة عامة وتوافقية ومشتركة ثقافيا. وهي ليست خلافية ومن ثم ليست إيديولوجيا. ووعاؤها هو المعايير والقيم العامة المشتركة، من قبيل الحرية والمساواة والعدالة والموضوعية (Van Dijk, 2002, p: 16). فمثلا يعد ميثاق حقوق الإنسان نموذجا لهذه الأرضية المشتركة؛ إذيشكل معيارا يمكن الاستناد إليه لتقييم الممارسات الخطابية المنتقدة، وهكذا تصبح الحرية مثلا متعارضة مع قواعد عدم المساواة الاجتماعية(□□).

4 -نموذج تطبيقي: نقد استعارة "الهجرة: قوة طبيعية"(بر□).

تعد الاستعارة من البنيات الخطابية الهامة في تحليل الخطاب السياسي وغيره من الخطابات الأخرى، نظرا إلى الدور الأساسي الذي تؤديه في التواصل الإنساني، بل هي التي تحكم هذا التواصل وتؤطره؛ فهي من جهة تعد من البنيات التي تكون فيها السلطة غامضة وخفية ومسلما بها، لذلك نجد روث وداك وميشيل مايير (2009) يصرحان بأنه ليس نوع الإيديولوجيا الذي يظهر على سطح الثقافة هو الذي يهتم به التحليل النقدي للخطاب، بل بالأحرى النوع

الأكثر خفية والكامن في المعتقدات اليومية التي تظهر غالبا باعتبارها استعارات وتشبيهات مفهومية؛ إذ تظهر الإيديولوجيات المسيطرة وفقهما محايدة ومتمسكة بافتراضات لا تُتحدى في الغالب. وهي من جهة أخرى تشكل وعي الناس وتحدد طبيعة تفكيرهم وتوجه سلوكهم، ومن هذه الناحية تتبدى خطورتها. ولا نعجب أن يكتب جورج لايكوف ومارك جونسون كتابهما الشهير "الاستعارات التي نحيا بها"(تر□) (1980)، ثم يكتب لايكوف بعد ذلك بعقد من الزمن مقاله "الاستعارة والحرب" (1992) الذي بدأه بجملة "يمكن للاستعارة أن تقتل (Lakoff, 1992, p: 463)، في سياق حديثه عن حرب الخليج،(ير□) ونظرا إلى هذه الأهمية حظيت الاستعارة باهتمام كبير دون غيرها من البنيات الخطابية. وسنتوقف باستعارة الهجرة قوة طبيعية، محللين إياها تحليلا نقديا، بالمعنى الذي وضحناه آنفا.

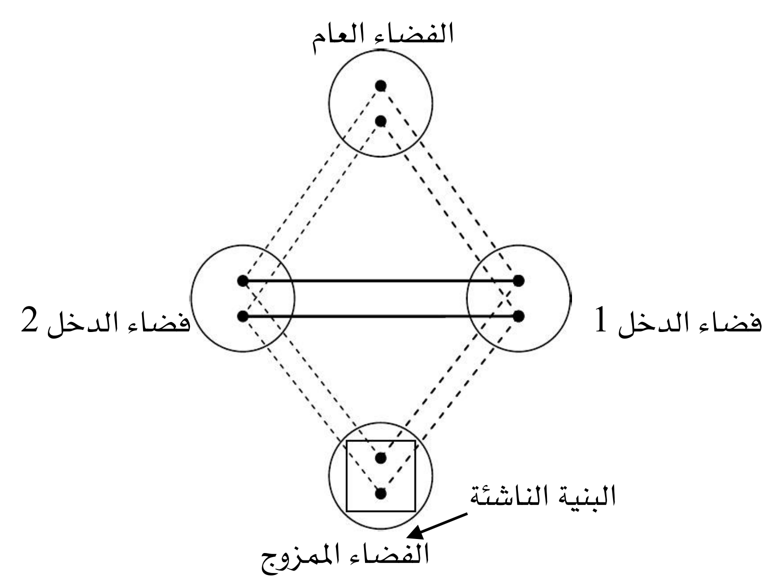
4 -1 -الاستعارة بين التحديد والنظرية.

4 -1 -1 -تحديد الاستعارة: لا أستخدم الاستعارة هنا بالمعنى التقليدي لها أي باعتبارها نقلا من معنى أصلي إلى معنى آخر، كما هي عند أبي الحسن القاضي، والحاتمي والعسكري، ولا بكونها ادعاء، كما هي عند الجرجاني(سمـ□) (عبد الله الحراصي، 2002)، بل أستخدمها بالمعنى الحديث، وبالضبط أتبنى منظور الاستعارة التصورية للايكوف وجونسن، ومن ثم أحدد الاستعارة بأنها: "الظاهرة التي نتكلم، وربما نفكر، من خلالها في شيء ما بمفردات شيء آخر (إيلينا سيمينو، 2008، نقلا عن عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، 2013، ص: 21). كما أنه بسبب النزعة النقدية التي أتبناها، لن أوظف نظرية الاستعارة التصورية للايكوف وجونسون في تحليل الاستعارة، بل سأوظف نظرية المزج التصوري لفوكونيي وتيرنر، لملاءمتها للتحليل النقدي

بعكس نظرية الاستعارة التصورية(□□)، وأعتمد في هذا الصدد دراسة كريستوفر هارت "التحليل النقدي للخطاب والاستعارة: نحو إطار نظري"(□).

4 -1 -2 -نظرية المزج التصوري: تعدّ نظرية المزج التصوري نظرية لبناء المعنى المباشرonline، ولا تحيل الكلمات، في هذه النظرية، على وحدات في العالم، بقدر ما تعمل على بناء فضاءات ذهنية. والفضاءات الذهنية، وفقا لفوكونيي وتيرنر "هي حاويات تصورية صغيرة مبنية وفق تفكيرنا وحديثنا لأغراض الفهم والفعل المحليين. إنها مترابطة، ويمكن أن تعدل بوصفها فكرا وخطابا يتطور تطورا تدريجيا unfold" (Fauconnier and Turner, 1996, p: 113). وتضم عناصر الفضاء الذهني: الوحدات، والموضوعات، والأفعال، والسيرورات، التي تحيل على الضمني والصريح في الخطاب.

وفي حالة الاستعارة تبنى الفضاءات الذهنية عبر الخطاب، وتخضع لعملية مزج تصوري خاصة. وقد حدد فوكونيي وتيرنر نموذجا للمزج التصوري وفق النموذج الآتي:



الشكل1: رسم بياني لأساس المزج التصوري

يمكن توضيح هذا الرسم وفق النقط الآتية:

• تمثل الفضاءات الذهنية من خلال الدوائر الكبيرة، بينما تمثل العناصر من خلال النقط داخل الدوائر، والخطوط المتقطعة تربط العناصر داخل أربعة فضاءات، وهي تمثل التخطيطات التصورية عبر الشبكة.

• في المزج التصوري يشترك فضاءً الدخل في الارتباطات المتناظرة بين العناصر، الممثلة في الرسم البياني بالخطوط العريضة. وهذه الارتباطات تحيل على علاقات حيوية، من قبيل: الهُوية والدور والقصدية والزمن والفضاء والمقولة.

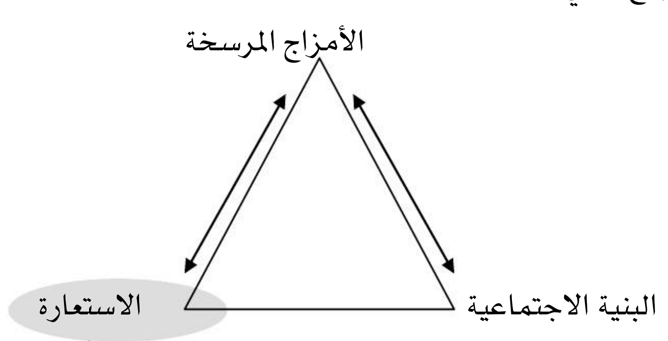
• يتضمن الفضاء العام بنية مجردة تعد مشتركة للعناصر المتناظرة في كلا فضاءي الدخل. تبعا لذلك، فإن العناصر في الفضاء العام تسقط على العناصر المتناظرة في فضاءي الدخل. ويمكن أن نفكر في البنية التي في الفضاء العام من حيث الأدوار الموضوعاتية؛ أي المقولات التي تبني التمثيل اللساني في الخطاب لسيناريو معين، بالإشارة، على سبيل المثال، إلى من فعل ماذا؟ لمن؟ متى؟ وكيف؟

• ونصل إلى الفضاء الممزوج عبر عمليات المزج التصوري، فالبنية من فضاءي الدخل الذهنيين يسقطان على فضاء جديد، هو فضاء المزج. كما يستقبل هذا الأخير البنية من الفضاء العام.

• البنية الناشئة يحيل عليها المربع الموجود في الفضاء الممزوج، حيث البنية من فضاءي الدخل تسقط على فضاء منفصل هو فضاء المزج، الذي يرث البنية الجزئية من فضاءي الدخل، ويمتلك بنية ناشئة خاصة به. والبنية الناشئة هي بنية فردية للمزج؛ أي أن الفضاء الممزوج يحتوي بنية ليست مباشرة من فضاءي الدخل، بل هي نتاج لعمليات المزج. وتتولد البنية الناشئة انطلاقا من ثلاث عمليات مزج هي: التركيب، والإكمال، والبلورة(□□). (Christopher Hart, 2007, p: 8-9).

يعتبر كريستوفر هارت، بناء على نموذج فان ديك الاجتماعي العرفاني□□، أن الاستعارة تسهم في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية أو تغييرها، خاصة عندما تتحول إلى أمزاج تصورية مرسخة (استعارة تقليدية)؛ أي حينما تصبح مكونا من مكونات الذاكرة طويلة الأمد (الأطر التصورية)، التي توظف في عملية المزج. وبعبارة فوكونيي وتيرنر: "تعمل الفضاءات الذهنية في الذاكرة المشغلة لكنها تبنيها جزئيا البنيات المفعلة والمتاحة في الذاكرة طويلة الأمد" (Fauconnier and Turner, 1996, p: 113 inChristopher Hart, 2007, (p: 10.

وقد مثل كريستوفر هارت الاستعارة في التحليل النقدي للخطاب وفق النموذج الآتي:



الشكل 2: الاستعارة في الخطاب يمكن أن تُكَوِّنَ البنية الاجتماعية عبر الأمزاج التصورية المرسخة.

يدرك كريستوفر هارت أن شبكات المزج لا يمكن أن تصبح جميعها مرسخة، فكيف يحدث الترسيخ؟ يجيبنا هارت بأن الخطابات (المجردة) تنشأ من خطابات النخبة (الملموس) والخطابات (الجمعية/جماعية). والاستعارات تحدث في الخطاب (الملموس)، واستعمالها قد يكون أكثر أو أقل تقليدية، وحينما تستعمل الاستعارة الخاصة على نحو تقليدي، يمكننا القول إنها تحتوي

جزءا من الخطاب (الجمعي/جماعي). وهكذا، فإن الاستعمال التقليدي للاستعارة يعكس شبكات المزج التصوري المرسخة، وهذه الأخيرة هي خطابات (مجردة). (Christopher Hart, 2007, p: 13)

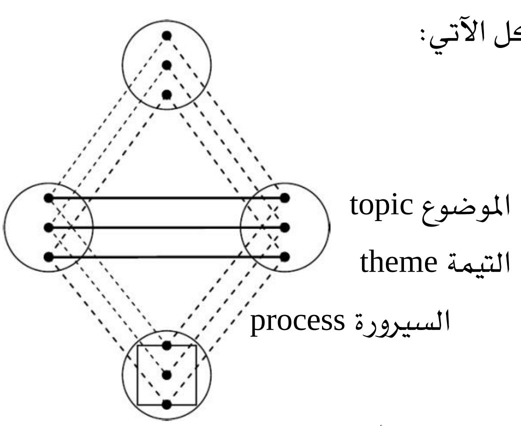
ونشير إلى أنه ليست كل بنية متاحة تتعلق بالأطر التصورية (التي يشغلهما فضاءً الدخل) يمكنها بالضرورة أن تسقط على الفضاء الممزوج، بل تلك التي لها فقط ارتباط بقصد المتكلم في بناء المزج. إنها تعرف بكونها إسقاطا انتقائيا، وأنها توجّه بقيود تداولية. ويشير هارت إلى أن الإسقاط الانتقائي في المزج التصوري يسهم أيضا في إيديولوجيا الاستعارة؛ فالعناصر المتاحة للتوظيف قد لا تسقط في الفضاء الممزوج. وحيث إن الإسقاط انتقائي في شبكة المزج التصوري هو ظاهرة تداولية، فإن شبكات الدمج تبنى حسب المقاصد التداولية (والبلاغية) للمتكلم (Ibid, p: 9-10).

4 -2 -**نقد الاستعارة:** بعد هذا التأسيس النظري، ننتقل إلى الممارسة التطبيقية للتحليل النقدي، وسنأخذ مثالا واحدا بما أن غايتنا هي توضيح التحليل النقدي لا الغوص في خطاب الهجرة وعلاقته بالاستعارة. وقد اخترنا عنوان مقال من جريدة نيويورك تايمز(لح بر) الأمريكية، نصُّه: "**آلاف من المهاجرين يغرقون النمسا**"(□ بر). وتعد استعارة الهجرة حركة ماء(بر بر) من الاستعارات الرائجة في خطاب الهجرة الأوربي، حيث أصبحت استعارة تقليدية، ومن ثم مزجا تصوريا مرسخا، مؤثرا في نمط تفكير المواطن الغربي، والأوربي خاصة، حول الهجرة والمهاجرين.

ويشير هارت إلى أن البنيات الخطابية، ومن بينها الاستعارة، عبارة عن تمثيلات لغوية تهدف إلى تحقيق بعض الاستراتيجيات، من أهمها: "الاستراتيجية التقويمية"، التي تتجز غالبا باعتماد حجج سائدة topoi، كالخطـــر أو العدد أو الإزاحة (Wodak and Sedlak, 2002, p: 233 in Christopher Hart, 2007, p: 14).

والعنوان السابق يشكل استعارة وظفها كاتبها كتحقق لحجة سائدة للاستراتيجية التقويمية، والمتمثلة في: الخطر، والعدد، والإزاحة؛ فقد قدمت الهجرة استعاريا بوصفها تهديدا للنمسا، وهو مثال على حجة سائدة حول خطاب الهجرة ومفاده خطر هذا الهجرة على البلدان الأوربية، وفي هذا السياق خطرها على النمسا، كما أن استعمال كلمة "تغرق" يمكن أن نعتبره هو الآخر حجة سائدة للعدد، فالإغراق يتطلب كمية كبيرة من الماء. أضف إلى ذلك أن حلول هذه المياه في النمسا لا شك في أنه يشكل إزاحة للمواطنين النمساويين من أماكنهم وحلول الماء/المهاجرين مكانهم، وهنا تصور لنا النمسا على أنها وعاء ممتلئ لا يتوفر على مكان آخر خال يمكن إضافة شيء آخر له.

ويمكن أن نبني شبكة المزج التي تتعلق بإغراق المهاجرين للنمسا وفق الشكل الآتي:



وعاء	النمسا
ماء	المهاجرون
أغرق	وصل

النمسا - وعاء

الماء - المهاجرون

الإغراق - وصل

بحفز من "مهاجرين" و"إغراق"، فإن فضاءين ذهنيين يبنيان ويدخلان في شبكة مزج تصوري، البنية الناشئة تظهر في الفضاء الممزوج؛ حيث العناصر الثلاثة المتناظرة في كل فضاء دخل تتصهر عبر التركيب، منتجة عملية المزج، حيث البنية الناشئة تتصور النمسا على أنه وعاء، والمهاجرين على أنهم مياه، ووصولهم على أنه إغراق. وتأتي عملية الإكمال التي تنشط الأطر التصورية للمياه الخطرة ولكون الأوعية لها قدرة محدودة، وهكذا يدفع القراء والسامعون إلى تصور الهجرة إلى النمسا على أنها تدفق الماء إلى وعاء فيه أصلا ما يقدر على احتوائه. وتأتي البلورة لجعل الاستدلال متاحا بكون النمسا معرضة لخطر الغرق، ومن ثم تبرير أي سياسة تحد من الهجرة أو تقوم بتقييدها.

إن "الأوصاف ليست محايدة أبدا" (Van Dijk, 2000, p: 62)؛ فوصف حركة المهاجرين بأنها إغراقا للنمسا، يعكس إيديولوجيا عنصرية(ترجمتنا)، أضف إلى ذلك أن استعمال كلمة "إغراق" إيديولوجي من عدة وجوه؛ فهو يشكل مبالغة، والمبالغة، بحسب فان ديك، أداة بلاغية دلالية لتعزيز المعنى. إنها تتضمن، أحيانا، استعمالا لاستعارات خاصة (Ibid, p: 73)، كما هو الأمر في مثالنا. كما أنه يشكل معجمة، والمعجمة هي التعبير عن مفاهيم ومعتقدات ضمنية بوحدات معجمية خاصة، وتمثلت في مثالنا، من خلال التمثيل السلبي لعملية الهجرة بوصفها إغراقا. علاوة على كونها تشكل حجة سائدة (الخطر، والعدد، والإزاحة)، وهذه الحجج السائدة تظهر النمسا بطريقة إيجابية، فهي لا ترفض الهجرة بسبب هوية المهاجرين، أو بسبب مشاعرها السيئة أو بسبب تحيزاتها، بل فقط لأنها لا تستطيع ذلك، لأن ذلك يشكل خطرا عليها. (Ibid, p: 64).

كما أن وسم الهجرة بأنهامياها خطرة (الإغراق)، وفق الباحثة إنجا ديرفينيتي، يجعل الهجرة تتصور على أنها كيان، أي أنها قادرة على تغيير المظهر العام للدولة، وخلق الذعر أو تغيير المسار. إنها تُدرَكُ بكونها فاعلا نشيطا أو كيانا. وهذا يسمح لنا بوصفها بعبارات من قبيل أكبر أو أوسع. (Inga Dervinyté, 2009, p: 52).

وإيحاءات هذه الاستعارة ممتدة؛ فمعاملة الهجرة على أنها مياها خطرة تضع فردية المهاجرين وإنسانيتهم في الخلفية، ويوضع مكانهما سيناريو مخيف لحركات غير متحكم فيها من المياه يمكن لحدوثها أن يخلف فيضانات مدمرة، وموجات مغرقة من الوجوه البُنِّيَّةِ. والفيضانات استعارة كاملة perfect للإيحاء بالخوف والفزع (Otto Santa Ana, 1997, p: 322-323).

إن إيديولوجية هذه الاستعارة، جعلت سانتا آنا يعلق عليها قائلا: "بينما يوسم المهاجرون بوصفهم أفرادا كحيوانات (Santa Ana et al. (ms))، فإن عملية الهجرة توسم بمفردات استعارات الماء. وهذا يبدو طبيعيا لمتحدثي اللغة الإنجليزية الأمريكية، لكن ينبغي التأكيد أن بناء حركة الناس [على أنها حركة ماء] ليست هي الاستعارة الوحيدة الممكنة. (Ibid, p: 321). وفي سبيل تحدي هذه الاستعارات المهيمنة على خطاب الهجرة، يقترح سانتا آنا الاستعارات البديلة الآتية:

الهجرة مياه نافعة؛

الهجرة سقي لصحراء؛

الهجرة ربيع لثروة أمريكا؛

الأمة جسد: حيث الهجرة تدفق لدماء جديدة تعيد الحيوية للاقتصاد الأمريكي (Ibid, p: 325-329).

وطبيعي أن تكون هذه الاستعارات البديلة إيجابية ومعادية للعنصرية والخطاب المعادي للهجرة؛ فهي تقترح نظرة مغايرة تماما للهجرة بوصفها دمارا، إلى الهجرة بوصفها ضخا لدماء جديدة في عروق الدول المهاجر إليها؛ إنها تقوي الاقتصاد وتشيع التنوع، وتبني مجتمعا متسامحا، محاربة النزعات التمييزية والإقصائية والاستبعادية للآخر المختلف عنا.

خاتمة:

رغم ادعاء الصحف أنها محايدة في نقل الأخبار، إلا أنها تستعمل خطابا معاديا للهجرة أكثر من استعمالها خطابا محايدا(يربر)، وهي من ثم تعيد إنتاج بعض الإيديولوجيات المعادية للإنسانية بدل مقاومتها، وهكذا تصبح النخب، التي يُفترضُ أن تكون مقاومة، أداة إعادة إنتاج لوضع قائم، بل مرسخة له وداعية إليه. وفي ضوء هذا المعطى نقرأ كلمات بورديو بتمعن: "يمكن للكلمات أن تسبب الدمار والخراب... تحضرني أحيانا رغبة في إعادة أخذ "كل كلمة" من كلمات مقدمي البرامج التلفزيونية الذين يتحدثون غالبا بخفة ودون أن يكون لديهم أية فكرة عن صعوبة وخطورة ذلك الذي يقدمونه ولا عن المسؤوليات التي يتحملونها نتيجة لما يقدمونه للآلاف من مشاهدي التلفزيون بدون فهم لما يقدمونه وبدون أن يدركوا أنهم لا يفهمونه. ذلك أن مثل هذه الكلمات تخلق أشياء، تخلق التصورات والتخيلات الخادعة، تحدث الخوف، تؤدي إلى الهلع والرهبة أو ببساطة إلى تقديم عروض زائفة. (بورديو، 2007، ترجمة درويش الحلوجي، ص: 51).

وهكذا يصبح المحلل النقدي مطالبا بالوقوف عند الكلمات والاستعارات والتراكيب وغيرها من البنيات الخطابية التي تعكس إيديولوجيات معادية للإنسانية، كاشفا تلك الإيديولوجيات، ومتجاوزا إياها إلى اقتراح بدائل أخرى.

وتحتاج الاستعارة، وغيرها من البنيات الخطابية، لمزيد من التحليلات النقدية التي تنزع الألفة عنها وتؤشكلها، وتلك هي الخطوات الأولى نحو تحليل نقدي للغة.. لغةٌ نستعملها دون وعي بمخاطرها وتأثيراتها فينا وفي العالم المحيط بنا.

الهوامش:

1- سعيد بكار، باحث في لسانيات النص وتحليل الخطاب، المملكة المغربية.

2- يتحدث فان ديك (2007) عن ثمانية تخصصات تشكل البداية المستقلة لتحليل الخطاب (أو ما يسميه هو دراسات الخطاب)، وهي: الأنثروبولوجيا، واللسانيات، والنحو الشكلي، والتداولية، والسيميائيات، وتحليل المحادثة، والسوسيولسانيات، وعلم نفس معالجة النص والذكاء الاصطناعي. ورغم أن هذه التخصصات درست الخطاب من وجهات نظر مختلفة، إلا أنها تمتلك أسس منهجية مشتركة (انظر لمزيد من التفصيل:Van Dijk, 1985, 1987, 2007).

3- في عمل فوكو الجينالوجي طور نظريته عن السلطة/المعرفة، معتبرا أن السلطة لا تنتمي إلى فاعلين معينين مثل الأفراد أو الدولة أو المجموعات ذات المصالح الخاصة، بل هي بالأحرى منتشرة عبر ممارسات اجتماعية مختلفة، فلا يجب فهم السلطة بوصفها قمعية، بل بوصفها إنتاجية. إنها تشكل الخطاب والمعرفة. إن السلطة، في نظر فوكو، مشروطة دائما بالمعرفة، إذ من الصعب، في نظره، أن نتخيل نظام سجن معاصر دون علم الإجرام. وهذه الثنائية الفوكوية هي نتيجة لمفهومه للحقيقة، فهو يدعي أنه من غير الممكن الوصول إلى الحقيقة الكونية لأنه من المستحيل أن نتحدث من موقع خارج الخطاب. ليس هناك مفر من التمثيل، فآثار الحقيقة تخلق في الخطابات (Marianne and Louise, 2002, p: 14).

4- هناك معان عديدة لكلمة نقد في لسان العرب مفادها: إخراج الزيف، والمنح، والمناقشة، والنقر، والأكل اليسير، واختلاس النظر، والعيب والغيبة، والضرب بالإصبع، واللدغ. وستنتقل كلمة النقد من مدارها المعجمي إلى الاصطلاح من المعنى الأول؛ أي تمييز الدراهم والدنانير الجيد من الرديء، ومن ثم تكسا بطابع تقويمي (لسان العرب، مادة نقد). أما معجم مريام ويبستر فلم تخرج معاني النقد فيه عن المعنى العربي، فهو يؤكد الحكم التقويمي لكلمة النقد، ومن ثم التثمين الإيجابي أو إظهار نقط الضعف (معجم مريام ويبستر، مادة critics).

5- يميز فيركلاف، بين ثلاثة أشكال من النقد؛ النقد الإيديولوجي، الذي يركز على آثار السيميوزيس على العلاقات الاجتماعية للسلطة. والنقد البلاغي، الذي يركز على الإقناع (والتلاعب) في نصوص الأفراد أو حديثهم. والنقد الاستراتيجي، ويركز على كيفية تمظهر السيميوزيس في الاستراتيجيات المتبعة من لدن مجموعات فاعلين اجتماعيين لتغيير المجتمعات في اتجاهات خاصة. (Fairclough, 2012, p: 12).

6- حينما يتحدث فان ديك عن السلطة، فإنه يقصد بها، في تحليلاته، السلطة الاجتماعية؛ أي سلطة مجموعة (أ) على مجموعة (ب). ويحدد هذه السلطة انطلاقا من مصطلح التحكم، وهذه يعني عادة التحكم في الفعل، ف (أ) قادر على التحكم في أفعال (ب). وبما أن الخطاب شكل من أشكال الفعل، فهو يستعمل عادة للتحكم في أذهان الناس ثم في عقولهم. هذا التحكم قد يكون غير شرعي، وهنا نتحدث عن مفهوم التضليل أو الإقناع؛ أي أن الخطاب القوي يمكنه أن يؤثر في الطريقة التي نحدد عبرها حدثا أو موقفا في نماذجنا الذهنية، أو كيف نتمثل المجتمع في معرفتنا ومواقفنا وإيديولوجياتنا (انظر لمزيد من التفاصيل Van Dijk, 2000).

7- يميز فان ديك بين: 1) بينات المعنى، وتضم الموضوعات topics، ومستوى الوصف ودرجة التفصيل، والتضمينات والافتراضات المسبقة، والانسجام المحلي، والمرادفات والجملة الشارحة، والتباين والأمثلة والتوضيحات، والتنصل. 2) البنيات القضوية، وتضم الفاعلين والصيغة modality والتوضيح، والمراوغة والغموض، والحجج السائدة. 3) البنيات الشكلية، وتضم شكل الجملة، وشكل الحجة، ونظام قصة الأخبار، وحجم العنوان... 4) البنيات التركيبية، وتضم البناء لغير الفاعل والتأسيم، والتقديم والتأخير، والفاعلية agency وإخفائها، والتعدية. 5) البنيات الحجاجية، وتضم

الحجة والنتيجة، والمسلمات، والمنطلقات، والمغالطات، والإيديولوجيات، والمواقف والآراء. 6) البنيات البلاغية، وتضم الاستعارة، والجناس، والتشابيه، والسخرية، والتلطيفات اللفظية... 7) بنيات الفعل والتفاعل، ويضمان الأفعال الكلامية، والأفعال الاجتماعية. (Van Dijk, 2000).

8- يحكي فان ديك في مقاله: "من نحو النص إلى التحليل النقدي للخطاب"، سبب طرده من جامعة أمستردام، حينما كشف أن الشاعر الهولندي الكبير Gerrit Komrij، لم ينشر فقط أعمدة باسمه في الجرائد، بل أيضا من المحتمل أنه متورط في نكت عملية عبر نشر كتيبات عنصرية وكارهة للإسلام باسم مستعار (Van Dijk, 2004, p: 24).

9- يرى بلومارت وبولكان أن التحليل النقدي لا ينبغي أن يكتفي بجعل المرء واعيا بالأبعاد الاجتماعية لاستعمال اللغة، بل عليه أن يكون له أثر في المجتمع، من قبيل: تقوية الضعاف، وإعطاء صوت لمن لا صوت لهم، وتعرية سوء استعمال السلطة، ودفع الناس إلى معالجة الأخطاء الاجتماعية. وتضم هذه الآثار وظائف اجتماعية وسياسية، ويمكن إضافة الوعي بطرائق اشتغال اللغة كوظيفة علمية. (Blommaert and Bulcaen, 2000, p: 449).

10- يعتبر فان الإيديولوجيات والمعرفة والمواقف أنظمة معتقدات مشتركة اجتماعيا، ويدعوها "تمثيلات اجتماعية"، بيد أن الإيديولوجيات تتميز بكونها المعتقدات "الأساسية" المنظمة لهذه التمثيلات الاجتماعية. وأنها تحكم الممارسات الاجتماعية للفاعلين بوصفهم أعضاء مجموعة ما. ويشير إلى أن الإيديولوجيات خلافية، وأن هناك أرضية ثقافية مشتركة، ليس خلافية، ومن ثم ليست إيديولوجية، من قبيل حقوق الإنسان، التي يستند عليها في نقد الممارسات الخطابية (Van Dijk, 2002, p: 16).

11- يميز فان ديك بين السلطة الشرعية وغير الشرعية، جاعلا هذه الأخيرة مجال نقده. ويوضح ذلك بقوله: "يمكننا أن نتكلم عن التوظيف غير المشروع للسلطة الخطابية؛ أي الهيمنة، إذا كان مثل هذا الخطاب أو نتائجه يمكن أن تنتهك حقوق الإنسان أو حقوق المواطنين المدنية بشكل منظم، وبصورة أكثر تحديدا، هذه هي الحال إذا كان مثل هذا الخطاب يعزز أشكال الظلم الاجتماعي" (فان ديك، 2008، ترجمة غيداء العلي، 2014: 67).

12- تعد استعارة الهجرة قوة طبيعية من الاستعارات الشائعة في الخطاب حول الهجرة، وترتبط هذه الاستعارة بصورة الماء وتحيل على مفهوم تدفق الماء بوصفه مجالا مصدرا، وقد تحتوي على مفاهيم من قبيل: تدفق، موجة، اندفاع، حواجز (Inga Dervinyté, 2009, p: 52).

13- لخص الباحث سلطان كوفيتش السمات الرئيسة التي أتى بها كتاب هذين الباحثين في النقط الخمس الآتية:

- الاستعارة تختص بالمفاهيم لا بالكلمات؛
- لا تقتصر وظيفة الاستعارة على هدف فني أو جمالي فقط، بل تساعد على فهم أفضل لبعض المفاهيم؛
- لا تتأسس الاستعارة، غالبا، على المشابهة؛
- يستعمل الناس العاديون الاستعارة استعمالا غير متكلف في الحياة اليومية، ولا يقتصر ذلك على أناس موهوبين فقط؛
- الاستعارة بعيدا عن كونها محسنا بيانيا لسانيا يمكن الاستغناء عنه رغم جماليته، هو سيرورة حتمية للفكر والعقلانية البشرية (ZOLTÁN Kövecses, 2010, p:x).

14- سيترجم عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم هذا المقال، إضافة لمقالين آخرين، في كتاب بعنوان "حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل" (عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، 2005).

15- يرى عبد الله الحراصي في كتابه "دراسات في الاستعارة المفهومية" أن الاستعارة في النظريات التقليدية قامت على أساسين: أولا، أن الاستعارة ظاهرة لغوية. ثانيا، أن الاستعارة تحتوي على تناقض منطقي بسبب عدم مباشرتها. وقد أدت هذه الأفكار، حسب الحراصي، إلى اعتبار الاستعارة أمرا هامشيا ليس له دور أساسي في تشكيل العقل البشري وأنماط التفكير، وفي تشكيل الأفكار ذاتها في بناها المختلفة (عبد الله الحراصي، 2002: 18-19).

16- يرى كريستوفر هارت أن نظرية المزج التصوري ملائمة للتطبيق مع التحليل النقدي للخطاب خلافا لنظرية الاستعارة التصورية التي يعترض تطبيقها مشاكل عدة أوجزها في مشكل التركيز، ومشكل الحافز، ومشكل العلاقة. وبيان ذلك كالآتي: يقصد هارت بمشكل التركيز أن نظرية الاستعارة التصورية تهتم بالبنيات التصورية التي تتطلب حدس متكلم أصلي للغة، بينما يركز التحليل النقدي للخطاب على

تحليل المستوى الميكرو للأمثلة الملموسة للخطاب، وهو ما يعني النماذج الفعلية للحديث أو النص. وتهتم نظرية الاستعارة التصورية بالميادين غير السياسية، بينما يركز التحليل النقدي للخطاب على الموضوعات التي تندرج في مجال الخبرة الاجتماعية والسياسية.

ويعني بمشكل الحافز أن نظرية الاستعارة التصورية تعتبر الاستعارة جزءا من اللاوعي العرفاني، فهي غير خاضعة لقصد المتكلم، بينما يرى التحليل النقدي للخطاب الاستعارات اختبارا يقوم به المتكلمون لتحقيق أهداف تواصلية خاصة في سياقات خاصة، بدلا من كونها محددة مسبقا بتجربة جسدية.

أما مشكل العلاقة فيتعلق الأمر هنا بين مشكل العلاقة بين التمثيل التصوري والتمثيل اللساني، فنظرية الاستعارة التصورية، تعتبر الاستعارة اللسانية مظهرا للمستوى السطحي المؤسس للاستعارة التصورية، أي أن البنية اللسانية ليست سوى انعكاس للبنية التصورية. فالتمثيل اللساني إذا هو نتاج للتمثيل التصوري. والتحليل النقدي للخطاب يقول بعكس ذلك، فالتمثيل اللساني يمكن أن يُحَدِّدَ، نوعا ما، التمثيلَ التصوري.(Christopher Hart, 2007, p: 4-6).

17- نشر مقال كريستوفر هارت، سنة 2008، لكننا نعتمد المقال نفسه في نسخة 2007، الموجودة في الأنترنت على الرابط الآتي:http://uhra.herts.ac.uk/handle/2299/4862

18- يُقصدُ بالتركيب composition أنالمزج يمكن أن يركب عناصر من فضاءي الدخل لتقديم علاقات لم تكن موجودة في الفضاءين المنفصلين. مع ذلك، يحدث في حالة الاستعارة تركيب من نوع خاص يطلق عليه اسم الانصهار.

ويقصد بالإكمال completion البنية المرتبطة بالخلفية المتعلقة بالعناصر في فضاءي الدخل الموظفين في المزج. هذه الخلفية يمكن أن تأخذ شكل معلومات سياقية أو أطر تصورية.

أما البلورة: elaboration فهي إدارة running المزج" (Fauconnier and Turner, 1997, p: 151). حيث يؤول المشهد ويستدل على آثاره المحتملة. (Christopher Hart, 2007, p: 10-11)

19- يقوم منظور فان ديك الاجتماعي العرفاني على ثلاثة عناصر: وظيفة اجتماعية، وبنية معرفية، وتعبير وإنتاج خطابيين. حيث تأثير الخطاب في المجتمع يمر عبر وسيط عرفاني (نماذج السياق

ونماذج الحدث، والمعرفة والمواقف والإيديولوجيات والأرضية المشتركة...إلخ). انظر لمزيد من التفصيل (Van Dijk, 2009, in Wodak and Meyer, 2009, p: 62-86).

20- تعد جريدة "The New York Times" الأمريكية جريدة يوميةتنتمي إلى الحزب الديمقراطي، ذات التوجه اليساري، وهي من بين أكثر الجرائد مبيعا في الولايات المتحدة، وحصلت على 117 جائزة بيلتزر. لمزيد من التفاصيل انظر الرابط الآتي:
https://en.wikipedia.org/wiki/The_New_York_Times

21- أخذ هذا العنوان من مقال من جريدة "The New York Times " على الرابط الآتي:
http://www.nytimes.com/2015/09/20/world/europe/thousands-flood-into-austria-as-refugees-are-bounced-around-europe.html?_r=0

بعنوان: "**Thousands of Migrants Flood Into Austria**". ونشير إلى أن تصور المهاجرين والهجرة على أنهما مياه خطرة، تقليدي الاستعمال في الخطاب حول الهجرة في العالم الغربية. انظر على سبيل المثال المقال في الرابط الآتي، الذي يلخص الأفكار السبع المتداولة حول الهجرة:

7- idées reçues sur l'immigration et les immigrés en France
http://www.lemonde.fr/les-decodeurs/article/2014/08/06/sept-idees-recues-sur-l-immigration-et-les-immigres_4467506_4355770.html

22- استعارة الهجرة مياه خطرة، لها تصنيفات فرعية ثلاثة: أولا، المياه الخطرة كمية، وهي تؤكد على أعداد المهاجرين. ثانيا، المياه الخطرة حركة، وهي تؤكد على اتجاه المياه. ثالثا، التحكم في المياه الخطرة. (Otto Santa Ana, 1997, p: 321-322).

23-يعرف فان ديك العنصرية بكونها نظاما من عدم المساواة الإثنية/العرقية، التي يعاد إنتاجها عبر الممارسات الاجتماعية الميزية، بما في ذلك الخطاب، في المستوى المحلي (الميكرو)، وعبر المؤسسات والمنظمات وعلاقات المجموعة الشاملة/العامة على المستوى العام/الكوني (الماكرو)، والتي تُدَعَّمُ عرفانيا عبر الإيديولوجيات العنصرية. (Van Dijk, 2000, p: 41).

24- ليست كل الصحف معادية للهجرة، فهناك صحافة تحاول أن تبني لنفسها خطا تحريريا محايدا؛ فعلى سبيل المثال، هناك مقال للصحفي دافيد شارياتمداري في جريدة الجارديان، يتوقف بالاستعارات المسمومة في النقاش حول الهجرة، ويحددها في استعارت: الأسراب، والفيضانات واللصوص، منتقدا

هذه الاستعارات، ومعتبرا هذا الانتقاد ليس حدا من حرية الكلام أو حظرا له، بل تحد لأنماط واضحة وهامة من التفكير الذي لا يعكس الواقع. انظر المقال في الرابط الآتي:

http://www.theguardian.com/commentisfree/2015/aug/10/migration-debate-metaphors-swarms-floods-marauders-migrants

لذلك على أن التحليل النقدي (الكيفي) لمثل هذه الاستعارات أن يعزز بتحليل كمي، حتى نتمكن من تعميم النتائج التي يصل إليها الباحث.